

مصر والشام للسيدة وداد سكاكي

كنا إذاً ولينا الوجه شطر مصر كالعيس في البيداء ،
تلهف ظمأً إلى الماء وهو على ظهورها محمول . فيا عجباً لذلك
الحنين الذي كان يطفو على جنبات نفوسنا كوج البحر وهو
يمور ويفور ، ثم لا يكاد موجه أن يندفع على الصخور حتى يحمور
ويضور ، فهو هباء منثور . كذلك كنا إذا هزنا الشوق إلى
مصر هفواً إليها من ربوع غسان ودارات أمية ، فكانت
رياح الحنين غادية غير رائحة ، ومقيمة غير مبارحة . ولقد صرت
بالشام عهود وأحداث كانت في خلالها يمزج عن غيرها ،
لا يبلغ مصر من هذه الديار إلا التجار ونزر من الأخبار يتلقاها
النسيب من النسيب ، حتى تصرمت تلك القطائع وتواصلت
بمدها أوامر ووشائج ، كان وثاقها يشدد على ترادف الأيام ؛
ولكن لم تبلغ مداها ولا أدركت مناها ، فحنين العرب إلى مصر
عريق في الدهر ، ظهرت بوادره منذ تطامنت لوادي النيل
مقاليد الحكم والسيادة من عهد الخصب أميرها ، وكافور
الأخشيدي مليكها ، فقد آناها النواصي زائراً ومدح أميرها
بقصيدته التي مطلعها :

أنت الخصب وهذه مصر فقدفقا فكلالما بحمر
ثم ورد عليها أبو الطيب التنجني منتجماً وشاعراً فكان لها
في نفسه أثر ما زال أروع طوابع شعره . وكأنما أراد الله لمصر
بعد أن هوى تاج العز عن رؤوس العباسيين أن يتألق على رأسها
فكان لها من المجد والعلم ما كان لمواصم الغرب التي أفادت
من علماء الروم بعد طغيان الحرب على بلادهم فكانوا حينما
توجهوا وأبنا حلوا يتابع معرفة وثقافة ، فما أدلت العباسية
وطوائف الملوك حتى كانت مصر مورداً عذبا لجماعة من العلماء
والكبراء ، ومثابة لطائفة من المؤرخين والفقهاء ، وكأنها قبله
علمية توجهت إليها الأنظار والأفكار ، وذلك قبل عهد الانحطاط
الشامل الأخير . ولما امتدت يد الظلمة والحول إلى أرجاء الشرق
كانت مصر في البلاد الهاجعة فانطلقت تلك الشعلة الباقية
من مصابيح العرب الأوائل ، حتى كان البعث الحديث زمن
الغزوة النابوليونية ثم أيام النهضة المباركة التي خلق فيها مصر
من جديد محمد علي باشا الكبير

وفتح العالم العربي عينيه بمدسبات عميق ، وتلفت المستيقظون
صوب البلاد الآمنة الخسيرة ، فلم يجدوا غير مصر مراحاً
لأرواحهم وعبرياتهم ، وصورة لأبجدهم وذكرياتهم ، فتوافدوا
عليها شيقين طامحين ، وأكرمتهم وفادتهم ومودتهم ، وقد
عقدت بينها وبينهم وشائج القربى والتاريخ وروابط اللغة والدين .
وسبق اللبنانيين إليها مهاجرين فسكنوا وادي النيل وكأنهم
بين أهل وعشيرة ، فاستهوتهم بحفاوتها وخيراتها ، وساهموا
في نهضتها المعاصرة مساهمة لمت آثارها في المرافق التجارية
والحياة الأدبية ، وما زالت مجاني ثقافتهم وصحافتهم دانية
القطوف في المقتطف والحلال والمقطع والأهرام . على أن هؤلاء
المستوطنين ما لبثوا أن تركوا طوابعهم السورية واللبنانية ماوراء
العقبة واتسموا بميامم مصر فتكلموا لهجتها العذبة واقتبسوا
من عاداتها وتقاليدها ، واكتسبوا من « جنسيتها » فشاركوا
أهلها في التبعات والواجبات وصار لهم حق في مراتب الدولة ،
وفي مجلسي الشيوخ والنواب .

وشاءت الأحداث منذ الحرب الغائرة أن تفرق بين الإخوان
والجيران في التخوم والإقليم ، أما وحدة الشعور واللغة وعلائق
المودة والمهوم ، فكانت تربدها الأيام والآلام حدة وقرباً ،
وما ألت بمصر حادثة أو دهمت بلاد الشام كارثة حتى كانت
صيححات المواساة والمؤتمرات تعلن تبادل الولاء والوفاء بين
القطرين المجاورين . وللشام كما قلت هوى بمصر عريق ، ولكنه
كان كيناً دفيناً فلم يجد له بشاً وبشاً غير الأدب والثقافة ،
فكانت المنابر والأقلام مظاهر ذلك الشعور والإخاء ، وأكب
العرب في جميع أقطارهم على أدب المصريين وصحافتهم . بيد
أن الشاميين كانوا أشد تعلقاً بأدياب الكنانة وشعراء النيل
ولا يدع إن أبجته أنظارهم صوب مصر الشقيقة الكبرى
وأعجبوا بآثار أدبائها وشعرائها ومآثر العروبة والإسلام فيها ،
فقد كان هذا القطر العزيز سباقاً إلى نشر الثقافة والمعرفة
بما توافر لديه من أعلام الفكر والصحافة ، وبما تكاثرت فيه
من دور التربية والتعليم ومعاهد اللغة والدين ، فإيكاد يصدر
عن مصر كتاب لأحد أدبائها حتى يتهاوت كل متقف في هذه
الديار على قراءة هذا الكتاب واقتنائه ، بل ما أحسب أن دار
علم عندنا أو معهد فن أو مكتبة أديب أو متعلم تخلو من مؤلفات
المصريين في ألوان الثقافة والأدب ، وما تظهر بحجة مصرية

ومن قبل هذه التحية الطيبة قال حافظ :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلي وهناك المجد والحسب
وقال :

إذا ألت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

ولكن الأدب في هذه البلاد ما زال عاتياً على غفلة المصريين

عن أهله ، ولطالما تواترت الملامة من أدبائنا لتفاضي مصر عن

أدبهم ونصائيفهم حتى عدوا ذلك منها إغفالاً وإهمالاً . وقد

اعترف بهذا التفريط أعلام الثقافة والأدب في وادي النيل ،

فيكتب الدكتور عبد الوهاب عزام : « وليس الأمر بيننا

تشابك أقوام واتصال أوطان لحسب ، ولكنه الحب المؤكد

والود المريح ينطق على السنة القوم ويتجلى في أسارىهم ويبين

في أعمالهم ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة في مصر

وتحدثهم عن علمائها وأدبائها وأحزابها وقادتها حديث الحب

العارف الخبير ، وحرصهم على قراءة ما يخرج مصر من كتب

ومجلات وجرائد ، وكثيراً ما نرى في الشام والعراق من يعلم

عن مصر أكثر من أبناءها . « ثم على مصر ألا تتردد في

الاستفادة بما في هذه البلاد من مزايا ؛ فلا ريب أن فيها من

الآداب والأخلاق والصناعات ما يجب علينا أن نلقاه عنها

ونحتذيها فيه »^(١) ، وقال الدكتور طه حسين في حديث له

عن الشرق العربي نشرته صحف كثيرة منذ بضعة أعوام وأشارت

إليه « فنحن مثلاً نزعم لأنفسنا ويفضّل إخواننا الشرقيون

فزعمون لنا أننا قادة الرأي في الشرق العربي وزعماء النهضة

الأدبية في العصر الحديث ، ونحن نتأثر بهذا الغرور ونرى

لأنفسنا حقوقاً ولا نكاد نشعر بما علينا من واجبات ، نرى

أن على الشرقيين أن يقرأونا وأن يتأثرونا ولا نكاد نشعر بأن

علينا أن نقرأهم دائماً وأن نتأثرهم أحياناً »

على أن الحكومة المصرية الجليلة شعرت بهذا القول عن

أدب الإخوان والجيران فأعدت العدة لتوحيد الثقافة في جميع

البلاد العربية ، وقررت تبادل المؤلفات والمطبعات بين

الأقطار الشقيقة والمجاورة . أما أمنية الأدب الغالية في ربوع

الشام فلم يتحقق ، وما زال أدباء مصر مجهولون أدبائنا وآثارهم ،

ولا تكاد تجد في إحدى المكتبات المصرية كتاباً لأديب

سوري أو لبناني في غير بلادهم

وشاءت الأقدار في هذه الأيام أن تؤلف المصوم والمخطوب

أو جريدة حتى تطلقها بشوق وترحاب ، وقد عجب لهذا طابعو

الكتب وياتمونها فعملوا أن جل هذه الأسفار والصحف تقرأ

وتروج في بلاد الشام وسائر الأقطار العربية أكثر مما تروج

وتنتشر في بلاد المؤلفين المصريين والصحافيين ، وإن جمهرة

العرب في هذا الشرق الأدنى يحلون علماء مصر وأدباءها وأهل

الفن فيها من أنفسهم عملاً رقيقاً ما يكون لهم من المصريين أنفسهم ،

بل إننا لا نمن على إخواننا وجيراننا إذا كنا لا نقادر صغيرة ولا

كبيرة من شؤونهم إلا نحيط بها علماً ، لأننا نجد في شعورهم

وتفكيرهم مدى لشعورنا وتفكيرنا ، وكما أن الشاميين عبروا

بمخاوفهم وأقلامهم عن إعجابهم بالأدب والطرب بطرفهم من نحو

مصر ، فإن شعراء النيل ما زالوا يرسلون قصيدهم في تحية الشام

ويبعث ذخائرهم وأمجادها . ولقد زار دمشق في ماضيها القريب أمير

الشعراء أحمد شوق مثلاً عينيه وروحه بمفاتنها ومباهجها ، ورأى

بتحديقة واحدة دنيا أمية راقدة تحت الترى منبثة في هذه الربوع

فبعثها في شعره اللهم إلى دنيا الحياة ، ونظم فيها قصيدته الفريدة

التي ناجى بها جلتى وتفتى بماضيها الأغر المحجل ، وفيها خلع

على الشام أوصافاً لا تحوها يد الحدنان . فيا لأمية في هامتها

وربوتها ، في نيربها وغوطتها اوبا لعظمة بردى مسلولاً كسيف

من فضة يوزع الخصب والبركة ، ويبدع الحداثق والظلال !

لقد كانت الشام مطوية الجاسن والمفانن ، كامنة الحنين

إلى الأجداد وعز الأجداد ، حتى هاجها شوق من مكانها

ورضع بها شعره الخالد ، فهب الشاميون على شعر شوق وترغوا به

ورجموه في معانينهم ، وفي مجالسهم ومدارسهم ، واهتاجت

مشاعرهم شوقاً إلى صفان النيل وحى الأزهر وحصن الإسلام .

وما اكتفى شوق بشعره في وصف دمشق ومجالها ، بل سكب

من قريحته بلسماً لجراحتها فرقى من أجلها وبكى ، وخلد ميسلونها ؛

وحين تهدم بنيانها ناح شوق على منازل المز وهي بأيدي البلي

من أحياء دمشق

وما كان حافظ إبراهيم ضنائقاً بقريضة في مناقب الشام

ومحمد أهلها وأنهم خير من رعي الجوار والإخاء . وقد أنشدتم

بلهجتة الساحرة قصيدته التي حيا بها من بالشام ، حياها وتمنى أن

تجرى الوددة طلقاً في أعراق الشرق كجزية الماء في الأفنان ؛ وحدث

سامعيه عن وجد النيل بيردى ، وأهدى إليه أشواق ولحان وتحنان